

تاريخ المتخيل

إفلين باتلاجين (*)

يتكون مجال المتخيل من جملة التمثيلات التي تفيض على الحد الذي وضعته الملاحظات الناتجة من التجارب، ومن تسلسل الاستنباطات التي تسمح له هذه الملاحظات بالوجود. وهذا يعني أن كل ثقافة لها متخيلها ومن خلالها كل مجتمع، وربما كل مستوى من مستويات مجتمع مركب، له متخيله. وبلغة أخرى، يبدو الحد الفاصل بين الواقع والمتخيل متغيراً، ولكن يظل الفضاء الذي يمر عبره هذا الحد الفاصل دائماً هو نفسه، ما دام يمثل حقل التجربة الإنسانية بأكملها، انطلاقاً مما هو جماعي على المستوى الاجتماعي

(*) إفلين باتلاجين (Evelyne Patlagean) من مواليد سنة 1932. أستاذة تعليم عال في جامعة باريس العاشرة - نانتر (Nanterre). نشرت بالخصوص: *Pauvreté économique et pauvreté sociale à Byzance, 4e-7e siècles, civilisations et sociétés*, 48 (Paris: E. H. E. S. S.; La Haye: Mouton, 1977), et *Structure sociale, famille, chrétienté à Byzance, IVe-XIe siècle*, Variorum Reprints, Collected Studies Series; 134 (London: Variorum Reprints, 1981).

تعاونت كثيراً مع المحاولات. تهتم بحولها الحالية بالتاريخ الاجتماعي والسياسي والديني في بيزنطة بين القرنين العاشر والثاني عشر بهدف دمجها في تاريخ المسيحي العام في تلك الفترة.

إلى ما هو شخصي بصورة عميقة: التطلع نحو آفاق قصية، في المكان والزمان، من مجالات غير قابلة للتعرف، والأصول الأولى للناس والأمم، والخوف الذي تحدثه المجاهل المقلقة للمستقبل وللحاضر، والوعي بالجسد المعيش، والاهتمام المتعلق بحركات النفس العفوية، كالأحلام مثلاً، والتساؤل حول الموت، والتناقض بين الرغبة وكبحها، والقهر الاجتماعي الذي يؤدي إلى الهروب أو إلى الرفض عبر الروايات المثالية التي تقرأ أو تسمع، وبالصورة، كما باللعب وبالفتون والاحتفالات والفرجة.

ويشع ذلك، إذا أردنا أن نعرف متخيل المجتمعات البعيدة عنا في الزمان، أو كذلك في المجال، من خلال هذه المواضيع، أن لا نحيد عن الخط الذي يفصل الواقع عن المتخيل بصورة مضبوطة، لأنه يمر في ثقافتنا الخاصة بنا.

المتخيل بوصفه موضوعاً تاريخياً

إنه تناقض يعسر حله، ولكن علينا أن نكون على الأقل واعين به. لم يصبح متخيل المجتمعات الأوروبية الماضي بوصفه موضوعاً تاريخياً إلا حديثاً. لقد اعتبرته الفترات الوسيطة والحديثة توأماً حياً ودائماً وخاماً ومكتوماً في الوقت نفسه ضمن ثقافة تلك الفترات، وذلك بحسب المواضيع وبحسب الأوساط. لقد اتسع التباعد التاريخي مع عصر الأنوار الذي سلب الإرث العتيق، ومع ظهور الرومانسية التي استقامت تلبية للذوق الجمالي والتفوي الوطنية، ومع العلوم التي أنهت القرن التاسع عشر وافتتحت القرن العشرين، وقد كانت على الغالب وضعية أو على الأقل مبنية بصورة ضمنية على تراث الثقافات ارتباطاً بفكرة التقدم. وكانت الثورة الكوبرنيكية قد بدأت تتشكل، وكان عليها أن تدفع طيلة العقود اللاحقة نحو ازدهار

هائل ومقترن بالعلوم الإنسانية والتاريخ. وكل هذه العلوم قبلت بترتيب الثقافات الماضية والحاضرة بصفة كلية، ولكن من دون تفاضل، وحددت لنفسها هدف الإدراك الكلي للإنسان بوصفه كائناً اجتماعي وبوصفه فرداً. وبهذه الطريقة، فتح حقل المتخيل الماضي على مصراعيه أمام الدراسات التاريخية، وهي التي تستمع إلى كل العلوم الإنسانية، مثل الأنثروبولوجيا والتحليل النفسي من دون أن تتخلى عن طرح أسئلتها المميزة: كيف تعتمد مقاربات هذه العلوم بالنسبة إلى مادة بعيدة في الزمان وفي المكان؟ وكيف نفسر أن هذا المجتمع أو ذاك راكم ما أمكن من المادة المتخيلة، وكيف يمكن التعبير في ما بعد عن التعبيرات التي عرفتها هذه المادة؟ إنها أسئلة شاسعة وليست قابلة للمعالجة هنا، بما أنها ببساطة تمس في الوقت نفسه تلك الحقول التي تجاور التاريخ تقليدياً، مثل «تاريخ الأديان» و«تاريخ الأدب» و«تاريخ الفن». إننا لا نتحاشى تجاوز حدودها، والتي هي تقريباً في طور المراجعة، ولكن يكون ذلك من دون توغل في بحوثها المميزة.

البحوث الأولى

فتحت أعمال ميشليه الطريق في هذا الميدان، كما في غيره من الميادين الأخرى، بوضوح خاص. لقد كان منتهياً للحركات التي تعتمل في أعماق «الشعب العجوز في فرنسا» وهو بطل أعماله⁽¹⁾. كان يشعر (وربما أكثر مما كان يفهم) بالتحمس الذي دفع بجموع البسطاء على دروب الحروب الصليبية، أو بالآمال التي علفت على

Jules Michelet, *Oeuvres complètes de Michelet*, 4.1, *histoire de France*, (1) *Livres I-IV*, éditées par Paul Viallaneix; préface par Jacques Le Goff; examen des remaniements du texte de 1833 à travers les rééditions par Robert Casanova (Paris: Flammarion, 1974).

«Michelet», *L'Arc*, no. 52 (1973).

انظر:

الألفية. لقد أَلَمَ بنظرته الثاقبة للطبيعة بشخصية الساحرة وأوثنتها وحياتها التي خصها بكتاب (سنة 1862)⁽²⁾. ونشير بعده إلى التطابق الذي بينه عمل جابمس فرايزر (James Frazer) في منعطف القرن بين الأسطورة والطقوس في الفترة القديمة الكلاسيكية وعند الشعوب التي تنعت بالتوحش. إن كتابه الذي جاء تحت عنوان: *غصن الذهب*⁽³⁾ لا يحتوي على تاريخ بالمعنى الزمني للكلمة، وهذا واحد من عيوبه، ولكنه يحتوي على جهد في التحليل المقارن بصفة كلية، وهو ما جعل منه عملاً رائداً وأعطاه صدى كبيراً. لقد كانت الفترة الراهية في «تاريخ الديانات»، فنذكر مثلاً البحوث المتفوقة للبلجيكي فرانتز كومون (Franz Cumont) حول الطريقة التي كان الناس يتصورون بها الخلود السعيد والمسالك التي تؤدي إليه في العهد الروماني، تحت تأثير الحكمة والطقوس الآتية من الشرق⁽⁴⁾.

تعتبر الفترة الخصبة لما بين الحربين هي البداية الحقيقية للبحوث التي نراها اليوم بصدد الإنجاز، إذ يجد المتخيل مكانه فيها ضمن تاريخ الذهنيات، ويتجلى من خلال هذه البحوث عالم الآخرة بالنسبة

(2) Beaujeu, Alain. «Le ... يمكن الرجوع إلى الدراسة النفسية التي قام بها: Premier livre de la sorcière.» *Annales économiques, sociétés, civilisations*, vol. 26, no. 1 (janvier-février 1971), pp. 186-204.

James Frazer: *The Golden Bough: A Study in Magic and Religion*, 13 (3) vols. (London: Macmillan, 1911-1915), et *Le Rameau d'or*, éd. abrégée, nouvelle traduction par Lady Frazer (Paris: P. Geuthner, [1924]).

Franz Cumont: *Les Religions orientales dans le paganisme romain*: (4) *Conférences faites au collège de France en 1905, annales du musée Guimet. Bibliothèque de vulgarisation*; t. 24 (Paris: Ed. Leroux, 1906), 4ème éd. revue, illustrée et annotée (Paris: P. Geuthner, 1929); *Recherches sur le symbolisme funéraire des Romains*, bibliothèque archéologique et historique; 35 (Paris: P. Geuthner, 1942), et *Lux Perpetua* (Paris: P. Geuthner, 1949).

إلى إنسان العصر الوسيط عند مارك بلوخ،⁽⁵⁾ وتمثل عالم المعاصرين لرابليه عند لوسيان فافر⁽⁶⁾. ويصبح بالخصوص متخيل عصر، في إطاره الذهني والثقافي والاجتماعي، موضوعاً أساسياً في تاريخ الفن الذي تنفرد به البحوث التي سنذكرها في ما سيلي، مثل بحوث إميل مال (Emile Mâle) وهنري فوسيون (Henri Focillon) العظيم.

شهادات عديدة عن متخيل المجتمعات الماضية

يبدو الإيقونوغرافيا أهم الشواهد الواضحة عن متخيل المجتمعات الماضية، ولكن لهذا المتخيل شواهد أخرى: المكتوب الذي ينتج مباشرة كما هو، وأقصد بذلك المؤلف كما دونه صاحبه، وكذلك المكتوب بوصفه دليلاً على خطاب ماضٍ، أو تحقيق أمام محكمة تفتيش، أو حيثيات وصية كتبت أمام العدول، وحصاد قديم أو حديث متبلور إلى حد ما لتقاليد شعب أو جهة أو وسط اجتماعي، أو على الأقل الخطاب الذي لا يزال حياً لتقاليد شقوية ولممارسات معاصرة. إن مثل هذه المادة تقدم للمؤرخين كثيراً من الخيارات: اختيار نوع من الوثائق وجرده محتوياتها أو محتويات البعض منها: رسوم الحيوانات العجيبة من خلال المنحوتات الوسيطة، الموت والآخرة في الكنائس المزخرفة في منطقة البروفانس، أو التوقف عند موضوع ما وتتبعه من

Marc Bloch, *La Société féodale: La Formation des liens de dépendance*, (5)

l'évolution de l'humanité, Synthèse collective; 34, [avant-propos de Henri Berr, 2e mille] (Paris: Albin Michel, 1939), rééd. 1968, et «La Vie d'outre-tombe du roi Salomon,» (1925), dans: *Mélanges historiques* (Paris: [s. n.], 1903), t. II, pp. 920-938.

Lucien Febvre, *Le Problème de l'incroyance au XVIe siècle: La Religion* (6)

de Robelaix, l'évolution de l'humanité, synthèse collective; 53 (Paris: Albin Michel, 1942).

خلال مختلف الوثائق في الفترة المحددة له: مثل الموت في أواخر العصر الوسيط أو القيام بمجرد للمواضيع المختلفة في فترة معينة مثل «خريف العصر الوسيط»، وأخيراً ترك مجال لتخييل المجتمع ضمن دراسة شمولية، مثل عالم سكان قرية في منطقة الأرياج العليا (Haute Ariège) وكيف يحدد هؤلاء قريتهم ويتصورون أنفسهم في أواخر القرن الرابع عشر. في كل الحالات تطرح مسألة التحقيق: يجب التأكد من أن الانقطاعات المعتادة تؤطر الموضوع جيداً أو يجب اقتراح تحقيق خاص في ضوء البحث وتناججه.

إن تحديد بداية ونهاية الإطار الزمني المقروضين على التطور التاريخي هو أمر أساسي، فهو سيكون الخط الذي يقود تقديمنا للبحث. سنرى عند ذلك أن بحوث تاريخ المتخيل لا تزال إلى هذا اليوم غير متكافئة، وخاصة مختلفة، وذلك بالنسبة إلى الفترات الأربع التي تشكل بتاريخ القارة المعجوز من خلال التقسيم البيداغوجي للتاريخ. وهذا ناتج، من غير شك، من اختلاف في نوعية الوثائق وفي عادات الفكر واختلاف المدارس، وحتى اختلاف شخصية الباحثين أنفسهم. إلا أنه وأعمق من ذلك، يكشف لنا توجهنا، وهو توجه تاريخي في عمقه، من ناحية عن الأمد الطويل لمواضيع أوروبية، مثل الساحرة أو الإنسانية الغرائبية، ومن ناحية أخرى يكشف لنا عن تسلسل لحقول عديدة داخل الموضوع الواحد، وعن أدوات نقل المتخيل عبر الأزمنة والأمكنة، ويكشف في النهاية عن الأهمية الحاسمة التي كان يمثلها حدّ وحيد هو انتشار المسيحية داخل المجتمعات الأوروبية.

العصر القديم الإفريقي والروماني

إن تاريخنا القديم هو تاريخ مزدوج، وله وجهان: وجه

إغريقي، ووجه روماني. تقدم بلاد الإغريق تعبيراً أسطورياً كثير الشراء، وهو تفسير للمجتمع ولطقوسه، وذلك ضمن تاريخ يعتبر ميلاد المدينة وتنظيماتها وثقافتها وانتشارها في شكل مستعمرات، هو أرقى فتراته. لقد شعر بعض الباحثين مثل هـ. هوبار (H. Hubert) بوضوح أن دراسة هذه المجموعة الثقافية يمكن أن تسحب بعض الأعمال من عالم الأنثروبولوجيا المعاصرة التي كانت جزءاً من علم الاجتماع، والتي كان رائدها مارسيل موص⁽⁷⁾. ولكن يرجع الفضل إلى جان بيار فرنان (Jean-Pierre Vernant) وبيار فيدال ناكيه (Pierre Vidal-Naquet) ومارسيل ديتيان (Marcel Detienne) في الحصول على نتائج من خلال هذا التقارب المنهجي مع علم يقترح من خلاله كلود ليفي شتراوس نموذجاً للتحليل المتزامن للأساطير وممارسة الطقوس⁽⁸⁾. وتطلق على هذا التحليل صفة البنيوي، لأنه محدد لمحاولة الفهم الكلي والتوافق بين أدوار الأساطير وأوقات طقوسها وممارساتها، وبين المواقع والعلاقات التي توجد بين أشخاص الأساطير والمعطيات الثقافية أو الاجتماعية التي هي في واقع الأمر الأرضية الأولى للبناء بأكمله.

دخل مارسيل ديتيان بصورة جذرية في تحليل من هذا النوع⁽⁹⁾، انتظمت في ضوءه معطيات أسطورية وطقوسية «كما لو أنها كانت

(7) انظر على سبيل المثال: Henri Hubert et Marcel Mauss, *Mélanges d'histoire des religions*, bibliothèque de philosophie contemporaine (Paris: F. Alcan, 1909), notamment l'essai «sur la nature des fonctions du sacrifice».

Claude Lévi-Strauss: «La Structure des mythes» dans: *Anthropologie structurale deux* (Paris: Plon, 1973), pp. 227-255 et la série des «mythologiques» commencée par: *Le Cru et le cuit* ([Paris]: Plon, [1964]).

(9) انظر في آخر الأمر إعلانه أنهجي: Marcel Detienne, *Dionysos mis à mort*, les essais, 195 ([Paris]: Gallimard, 1977).

(«لم يكن الإغريقون كغيرهم من الناس»).

منظمة في أقاصيص عجيبة وروايات غريبة يبدو من خلالها بوضوح أن الإغريق اكتشفوا الحروف التي اعتمدها للحديث عن العالم. ومثل هذا التمثيل هو الذي يعطي مثلاً معنى حداث أدونيس⁽¹⁰⁾. هكذا نسمي النباتات الهشة المزروعة في المحابس، والتي تعرضها النسوة غضة للفتح الشمس فوق السطوح كلما تمتعن بالحرية لتخليد ذكرى وفاة الصياد الجميل الذي تحبه أفروديت (Aphrodite). لكن أدونيس مرتبط من خلال ولادته بنبتة الصبار التي لها مكان في منظومة نباتية رمزية، حيث الروائح العطرة والجافة والحبوب ونضارة العشب الرطبة موضوعة فوق سلم من القيم يوافق سلم المنظومة الاجتماعية (التعفف/ الزواج/ الاختلاط بين الجنسين) والدينية (الإسك عن أكل اللحوم/ التضحية/ الاستهلاك المتوحش). لقد سمحت قراءة هذا التقنين الثلاثي لنظام واحد من القيم لحارسيل ديتيان أن يجد من الناحية التاريخية أن بلاد الإغريق وجدت الجواب لمشكلة أي مجتمع يتساءل عن موقعه ما بين الطبيعة وما فوق الطبيعة.

ساهم جان بيار فرنان بدوره في تاريخ الفكر الإغريقي بأن بين أنه إذا مر الفكر الإغريقي فعلياً، مع نهاية القرن السادس، من الأسطورة إلى العقل المفكر، فإن ذلك تم في مستوى الفيزياء الأيونية مثلاً، فهي تمثل محدد تاريخياً، تتمثل في علمة الفكر الأسطوري السابق، وليس في نشأة عقل لازمني مزعوم ونفع لا رجعة فيه لـ «معجزة إغريقية» مزعومة. وفي الوقت نفسه، وهو زمن بدايات المدينة، حلّ الفيلسوف محل الحكيم الملهم الذي له القدرة

Marcel Detienne, *Les Jardins d'Adonis*, bibliothèque des histoires, (10) introd. de J.- P. Vernant ([Paris]: Gallimard, [1972]).

على علم الغيب⁽¹¹⁾. لقد اهتم قرنان مثل بيار فيدال ناكيه بنشأة المدينة الإغريقية وسيرها وبالمثال الأثيني الذي لا يقصاهي ثراء أي ثراء. لقد كشفت تحاليلهما للأساطير عن عناصر من التاريخ السياسي: الظروف الملزمة للمرأة⁽¹²⁾، أو طقوس العبور من سن الشباب إلى سن الكهولة⁽¹³⁾، ونشأة التراجيديا، وميلاد الكاتب التراجيدي الذي يعتمد الخرافات القديمة ليقدم من خلالها إلى جمهور المدينة نقاشات قانونية أو أخلاقية يظل أبطالها خارج المجموعة المدنية أو سابقين لها، في حين تعبر هي عن رأيها من خلال الجوقة المصاحبة⁽¹⁴⁾، وحتى التعبير الجميل عن الفلسفة الأفلاطونية يكون ضمن هذه التراجيديا⁽¹⁵⁾.

Jean Pierre Vernant, *Mythe et pensée chez les grecs: Etudes de* (11) *psychologie historique, les textes à l'appui*, 13 (Paris: F. Maspero, 1965).

«Hestia-Hermès sur l'expression religieuse de l'espace et du (12) mouvement chez les grecs,» dans: Vernant, Ibid., et Pierre Vidal-Naquet, «Esclavage et gynécocratie dans la tradition, le mythe, l'utopie,» dans: *Recherches sur les structures sociales de l'antiquité classique: Cern. 25-26 avril 1969, colloques internationaux du centre national de la recherche scientifique. Sciences humaines* (Paris: Editions du centre national de la recherche scientifique, 1970).

Pierre Vidal-Naquet, «Le Chasseur noir et l'origine de l'éphèbie (13) athénienne,» *Annales économiques, sociétés, civilisations*, vol. 23, no. 5 (1968), pp. 947-964.

Jean Pierre Vernant et Pierre Vidal Naquet, *Mythe et tragédie en Grèce* (14) *ancienne, textes à l'appui. Histoire classique* (Paris: F. Maspero, 1972), notamment Vernant, «Le Moment historique de la tragédie en Grèce: Quelques conditions sociales et psychologiques,» pp. 11-17.

Pierre Vidal-Naquet, «Athènes et l'atlantide. Structure et signification (15) d'un mythe platonicien,» *Revue des études grecques*, t. 77 (1964), pp. 420-444.

أعمال جورج دوميزيل والأساطير الهند - أوروبية

أما من جهة روما، فتدور الأعمال الضخمة لجورج دوميزيل منذ سنوات حول أساطير التأسيس، وذلك قبل بروز أعمال ليفي شتراوس⁽¹⁶⁾. وبصورة أصح وأوسع، فقد استكشف دوميزيل الكثر الأسطوري الضخم الذي هو الإرث المشترك للشعوب المسماة بالهند - أوروبية من إسكندنافيا إلى الهند، ومن إيرلندا إلى روما، ومن جرمانيا إلى بلاد الإغريق. ترى قراءته الأولى أن أساطير المجتمعات الهند - أوروبية تحيل على بنية تعبر من خلالها هذه المجتمعات عن ذاتها بترائية الوظائف الثلاثة: الوساطة المقدسة، والحماس الحربي، والخصوية الفاعلة، وأن آلهة وأبطال الهند - أوروبيين ومغامراتهم ليست إلا تجسيدا لذلك التقسيم الثلاثي الأساسي. ولكن هذا التجسيدات، وإن كانت متطابقة في العمق، قد تكتسي أشكالاً مختلفة بحسب المجتمعات وبحسب الفترات: الملحمة في الهند (Mahabharata)، وتاريخ الأصول الأولى في روما القديمة، والتي بقيت منها رواية «تيت - لايف»، وفي إسكندنافيا في العصر الوسيط كتب ساكسو غراماتيكوس (Saxo Grammaticus) تاريخ الملوك الأوائل⁽¹⁷⁾، وفي النهاية رواية جزئية

(16) انظر حول العلاقة بين المقارنين : Pierre Smith et Dan Sperber.

«Mythologiques de Georges Dumézil», *Annales économiques, sociétés, civilisations*, vol. 26, nos. 3-4 (1971), pp. 559-586.

(17) يمكن أن نورد، من بين التعابير الحديثة : Georges Dumézil, *Mythe et*

épopée, bibliothèque des sciences humaines, 3 vols. ([Paris]: Gallimard, 1968-1973), vol. 1: *L'Idéologie des trois fonctions dans les épopées des peuples indo-européens*, vol. 2: *Types épiques indo-européens: Un Héros, un sorcier, un roi*, vol. 3: *Histoires romaines*.

من مابينوجيون بلاد الغال (Mabinogion gallois) ما دامت الرواية أصبحت هدفاً في حد ذاتها أو ربما فولكلوراً أيضاً⁽¹⁸⁾.

اعتناق المسيحية يفتح عصراً جديداً

فتح دخول المسيحية في الثقافة الأوروبية ميداناً مختلفاً في تاريخ المتخيل، حتى وإن ظل الاهتمام بالبحث عن تواصل عميق تحت الدين الجديد، وهذا ما نجده في أعمال دي مارتينو (Dimartino) وكارو باروجا (Caro Baroja) وميخائيل باختين أو لوغوف التي سنتذكرها في ما سيأتي. إن ضرورة القيام بمثل هذه البحوث الصعبة من حيث التبحر العلمي الذي تتطلبه لا يشعر بها الباحث دائماً، على رغم أن تاريخ الديانات⁽¹⁹⁾ والفولكلور⁽²⁰⁾ يهتمان بها منذ بداية القرن في إطار المشاريع النقدية والجدلية في تلك الفترة. وهي تبقى اليوم، وهو أقل ما يمكن أن يقال، توجهاً مفتوحاً، ومن أكثر التوجهات وعوداً.

Ajouter Georges Dumézil, *Du Mythe au roman: La Saga de Hadingus* (18) (*Saxo Grammaticus, I, v-viii*) et autres essais, collection hier (Paris: Presses universitaires de France, 1970).

Arturo Graf, *Miti, leggende e superstizioni del Medio evo*, 2 vols. (19) (Torino: E. Loesches, 1892-1893); réimpr. (Bologna: Faini, 1964), et Burt Franklin Research and Source Works Series: 858 (New York: B. Franklin, 1971). Autour du culte des Saints, Pierre Saintyves, *Les Saints, successeurs des dieux: Essais de mythologie chrétienne* (Paris: E. Naurry, 1907); et surtout, Ernst Lucius, *Die anfangs des heiligenkults in der christlichen kirche*, Herausgegeben von Gustav Anrich (Tübingen: Mohr, 1904).

Les Origines du culte des saints dans l'église chrétienne, الترجمة الفرنسية: traduit par Emile Jeanmaire; préface de P. Lobstein (Paris: Fischbacher, 1908).

Nicole Belmont, *Mythe et croyances dans l'ancienne France*, : أنظر (20) questions d'histoire; 35 (Paris: Flammarion, [1973]).

روزنامة الاعباد تعبر عن تواصل بديهي، فإن المسيحية تفتح على الأقل عَصراً جديداً للتمثلات الاجتماعية الكبرى في النظام الأوروبي، إذ تتأسس علاقات خاصة بين آخرة الأموات ومجهول الأحياء، وكذلك الإنسان بجسده. وتعبّر الثقافات المسيحية، زيادة على ذلك، عن تواصل داخلي بديهي في ميدان المتخيل، أو في غيره، عبر فترات توجد فيها كتلة وثائقية ثرية منقطعة النظير. في الأخير، وهذا أمر أساسي، وجد المؤرخون المعنيون بذلك أنفسهم آنذاك أمام مصادر مغمورة بعيداً عن ثقافتهم.

دراسة العصر الوسيط

لقد أثبت أهم الأعمال في العقود الأخيرة، سواء تعلق الأمر بمحتوى التمثلات أو بوسائل نقلها، وكذلك بالملفات الخاصة، في فترات الذروة أو في الأمد الطويل، إلى أي حدّ يكشف تطور تاريخ منظومة المتخيل عن التاريخ الاجتماعي في حدّ ذاته، والذي أصبحت نماذجه وتمثلاته أسباباً هي بدورها. ويظل العصر الوسيط المهد بما يسمح بمشاهدته قبل كل شيء. هناك ثلاثة مؤرخين أرادوا أن يتابعوا مسيرته الكاملة: لقد انطلق إميل مال وهنري فوسيون من التعابير المرئية، بينما انطلق جورج دوبي من النصوص.

وقد وضع هنري فوسيون، منذ أربعين سنة، المبادئ التي هي اليوم مبادئ التحليل البيوي من خلال «كتاب التاريخ الذي خصصه لفن الغرب الوسيط، وهو دراسة في العلاقات بين الأحداث والأفكار والأشكال، التي هي علاقات مختلفة من عصر إلى عصر ومن مصر إلى مصر»⁽²¹⁾. وهو بذلك يقف ضد الترتيب التقليدي لعناصر

Henri Focillon, *Art d'occident: Le Moyen âge roman et gothique* (Paris: (21)

Armand Colin, 1938).

التاريخ، مبيّناً أنه «لا يمكن أن ينظر إلى الأشكال بوصفها مجرد زينة»، وأن «فن العصر الوسيط ليس تعقيداً طبيعياً ولا تعبيراً سلبياً للمجتمع، فهو بذلك قد صنع العصر الوسيط ذاته إلى حدّ بعيد». ثم أدرك «الشكل السائد» من خلال نظام الأشكال، والمحبذ في عصر من العصور، والمحدد إذن لأن تكون كل الأشكال الأخرى وكل الصور مجبرة على التناسق مع الفضاء الذي يحتله الشكل السائد. ومن الفضاءات الضخمة للعمارة الرومانية والقوطية إلى المساحات المرسومة خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، تكون الأشكال والصور خطاباً مرتباً لفترات متتالية من تاريخ المجتمع الوسيط. وقد قاد جورج دوبي تمثيلاً بنيوياً في اتجاه معاكس في دراسته: الفن والمجتمع من القرن العاشر إلى القرن الخامس عشر⁽²²⁾، فنناول الموضوع في ثلاثة مستويات: عالم اجتماعي لأشكال سياسية موحية للأشكال الثقافية، وعالم متخيل يعكس المجتمع من خلاله واقعه وعدم رضاه، وبينهما وساطة الفن بأشكاله ومواضيعه.

ثقافة عالمية وثقافة شعبية

شدّت بعض الأقطاب الانتباه داخل هذا المجال الوسيط، وأولها مسار انتشار المسيحية نفسه، لقد ركّز جاك لوغوف من خلال مجمل أعماله على البديل بين الثقافة العالمية وثقافة العامة، والجدلية الثقافية بين رجال الدين والعامة طيلة العصر الوسيط المتقدم، متخذاً ذلك غربالاً لموروث أزلي⁽²³⁾، كما بيّنه جورج دوبي حول سنة

Georges Duby, *Le Temps des cathédrales: L'Art et la société, 980-1420*, (22) bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, 1976).

Jacques Le Goff: «Culture cléricale et traditions folkloriques dans la (23) civilisation mérovingienne», *Annales économiques, sociétés, civilisations*, vol. 22 = (1967); «Culture ecclésiastique et culture folklorique au moyen âge», dans: *Pour un*

ألف⁽²⁴⁾، وهو يعتمل في العلاقات التي ربطها الناس في ذلك العصر بين ما يرى وما لا يرى: من ذلك «حضور الأموات»، وقرب المسافة بين القديس والشیطان، وقدرة الملوك على صنع المعجزات، وفعالية الآثار المقدسة، ولكن أيضاً الإسقاط الكنسي للمجتمع في العالم السفلي في الأنظمة الثلاثة للقدس السماوية، والاندهاش الحالي لنهاية العالم ويوم الحساب. والتبادل نفسه يوجد في سير القديسين، وهي حظيرة شاسعة مفتوحة حالياً للعديد من البحوث، وهي تمثل أدبيات، لا حصر لها، تجمعت فيها، وفي الوقت نفسه في كل جهات العالم، لما كان هذا العالم مسيحياً خلال الألفية الأولى، وهي أيضاً مجموعة من الشهادات المتعلقة بعميش المجتمعات ومستوياتها الاجتماعية، وكثر لمتخيلهم الذي توجد فيه، جنباً إلى جنب، حكايات قديمة وحلقات كرامانية وعجيبة أو نموذجية تهدف إلى شحذ العقيدة وتهذبة مخاوف الناس⁽²⁵⁾.

إن ثقافة العامة والثقافة العالمية تتحكماً أيضاً، وبصورة أخرى، عند منعطف القرنين الرابع عشر والخامس عشر، في اعتقادات سكان

autre moyen âge: Temps, travail et culture en occident: 18 essais, bibliothèque des - histoires ([Paris]: Gallimard, [1977]), pp. 223-235 et 236-279, et *La Civilisation de l'occident médiéval*, collection les grandes civilisations; 3 ([Paris]: Arthaud, 1964).

L'An mil, coll. «archives», 30, présenté par Georges Duby ([Paris]: (24) Julliard, 1967).

(25) انظر المصدر نفسه، و: Evelyne Patlagean, «A Byzance: Ancienne hagiographie et histoire sociale», *Annales économiques, sociétés, civilisations*, vol. 23 (1968), pp. 106-126, et la très utile introduction de Sofia Boesch Gajano à son recueil: *Aglografia altomedioevale*, serie de storia (Bologne: Il Mulino, [1976]), pp. 7-48.

قربة مونتايو في منطقة الأرياج العليا التي درسها إمانويل لو روا لادوري انطلاقاً من ملف من ملفات محاكم التفتيش، وهو ملف ثري بصورة استثنائية⁽²⁶⁾. إن حضور الشيطان الذي ما زالت الساحرة لم ترتبط به بعد، وحضور الجن وقرب الأموات الذين ينطقهم الناس وطوائفهم بالأحياء من دون جحيم ومن دون مطهرة للذنوب حتى مشواهم الأخير، هي شهادة على وجود حالة قديمة من معتقدات العامة مآلها التجاوز في المستقبل، في حين تعتبر أفكار أهل مونتايو حول مسألة التفحص والأساطير المنقولة عن الحيوانات كالحصان أو العظاية، عن التحول الريفي المتأخر للحركة الكثيرة.

مهارب المتخيل المختلفة في العصر الوسيط

تمثل المسيحية التي يتواصل انتشارها في الأطراف غير المرئية للعالم منذ البداية إلى بداية الحداثة، ويشمل ذلك السلم الاجتماعي - الثقافي من أعلاه إلى أدناه، في جعلتها اتجاهاً رئيسياً في تاريخ المتخيل الوسيط، ولكن هذا الأخير يعطي كثيراً من التوصلات والإثراءات الأخرى.

يجب عدم الظن، من خلال صورة الشعوب الغربية والبعيدة، ومن نظرة أولى، أن الغرب منطو على ذاته، فهو قد أطل رحلته الحقيقية بما أوتي إليه من قصص خيالية: رسوم الحيوانات الغربية على العمارة التي وضع بورغيس بالثروزياتيس⁽²⁷⁾ (J. Baltrušaitis) مصادرها الشرقية؛ إنه أفق عالم بالمحيط الهندي فكّ جاك لوغوف

Emmanuel Le Roy Ladurie, *Montaillou: Village occitan de 1294 à 1324*, bibliothèque des histoires (Paris: Gallimard, 1975).

Jurgis Baltrušaitis, *Le Moyen âge fantastique: Antiquités et exotismes* (27) dans *l'art gothique*, collection Henri Focillon; 3 (Paris: Armand Colin, 1955).

من خلال «عجائبه»، أحلام وتصورات وقراءات أجيال من الناس⁽²⁸⁾، فهو أفق قريب، ولكنه أيضاً مشوب بالتوحش⁽²⁹⁾. وعلى العكس من ذلك، فهو أفق أخروي، وهو أفق يوم الحساب⁽³⁰⁾ والأرض المقدسة الموعودة⁽³¹⁾، واللجنة المفقودة أو التي أعيد اكتشافها⁽³²⁾، وهو أيضاً عالم بناء رحب وأسطوري لهرطقات العصر الوسيط⁽³³⁾.

هناك أيضاً الهروب الداخلي عبر الأدب إلى ما هو مرغوب فيه، وإلى ما هو مفقود، وهو ما يعتبر شهادة بلغة الصور عن حقيقة الوضعيات التاريخية وتطوراتها. كتب إريك كوهلر (Eric Köhler) في هذا الاتجاه كتاباً نموذجياً خاصاً بأقاصيص الملك آرثور، لقد بين

Jacques Le Goff, «L'Occident médiéval et l'océan indien, un horizon onirique» (1970) dans: *Pour un autre moyen âge: Temps, travail et culture en occident: 18 essais*, pp. 280-298.

Jacques Le Goff et Pierre Vidal-Naquet, «Lévi-Strauss en Brocéliande: Esquisse pour une analyse d'un roman courtois (Yvain de Chétien de Troyes).» *Critique*, no. 325 (juin 1974), pp. 541-571.

Henri Focillon, «Le Problème des terreurs,» dans: *L'An mil*, : انظر (30) collection Henri Focillon; 2 (Paris: Armand Colin, 1952), pp. 39-64.

Paul Alphandéry, *La Chrétienté et l'idée de croisade. Cours professé à l'école pratique des hautes études, l'évolution de l'humanité, synthèse collective*, 2. sect.: 38, texte établi par Alphonse Dupront, 3 vols. (Paris: Albin Michel, 1954-1959).

Arturo Graf, «Il mito del Paradiso terrestre,» dans: *Miti*, : انظر (32) *leggende e superstizioni del Medio evo*, 1964, et 1971, pp. 1-238.

Hérésies et sociétés dans l'Europe pré-industrielle, 11e-18e siècles: : انظر (33) *Communications et débats du colloque de Royaumont, [27-30 mai 1962], civilisations et sociétés*, 10, présentées par Jacques Le Goff (Paris: La Haye: Mouton, 1968), avec une bibliographie élaborée par H. Grundmann.

من خلاله كيف أن الأفاصيص التي كتبها كريتيان دو تروي (Chrétien de Troyes) تحدد موقع الفرسانية الفرنسية في التاريخ السياسي، وتعتبر عن عدم رضاها وعن تسامحها. وتخضع ملكية آرثور لمثل فيودالي يتعارض مع الملكية الفرنسية، ويتعالى على الاختلافات الاجتماعية العميقة التي تشق طبقة النبلاء وتنتهي في مهمة أخروية. تبدل «المغامرة» مجموعة النبلاء الصغار، غير الواضحة في الواقع، إلى قيمة فرسانية بامتياز بنحوظ فيها كبار الفيوداليين لمجابهة تهديد الملكية والبورجوازية. ويرى كوهلر في النهاية أن الحب العذري يثبت قطعية تحدد القرن الثاني عشر بدايةً للحدثة، لأنها أخرجت الفرد من الاستقرار الترابي القديم⁽³⁴⁾.

فيض المتخيل في أواخر العصر الوسيط

لاحظنا عند نهاية الفترة مختلف المسالك التي فتحتها حداثة العصر الوسيط المنتهي، المعبرة والمعقدة، أمام متخيل ساطع الثراء. لقد اعتبر فوسيون وفاء لمتنهجه قبل كل شيء، أن المجال الذي يقدمه الرسم ويتعامل معه بحرية جديدة لم يكن ممكناً بالنسبة إلى الفضاء المعماري في الفترات السابقة، وبين أن الفنانين يستطيعون

Erich Köhler: *Ideal und Wirklichkeit in der höfischen Epik, Studien zur Form der frühen Artus- und Graldichtung*, Beihefte zur Zeitschrift für romanische Philosophie; 97. Heft (Tübingen: M. Niemeyer Verlag, 1956), 2. Aufl. (Tübingen: M. Niemeyer Verlag, 1970).

الترجمة الفرنسية: *L'Aventure chevaleresque: Idéal et réalité dans le roman courtois: Etudes sur la forme des plus anciens poèmes d'Arthur et du Graal*, bibliothèque des idées, traduit de la [2ème éd. allemande] par Eliane Kaufholz, préface de Jacques Le Goff ([Paris]: Gallimard, 1974).

Jacques Le Goff, «Naissance du roman historique au XIIe siècle?», *Nouvelle revue française*, no. 238 (oct. 1972).

ترك المتخيل في ما وراء الحياة اليومية من خلال ما يرسمون: إنه فضاء مخادع ومسرحي يملأ خلفية الصورة: تجسد المشاهد الحاملة في ساعات دوق بري، إلى جانب المشهد الفيودالي والمشهد القروي، أعاجيب الخيال المسيحي، وتبرز من جديد الأقاصيص البشعة القديمة، وقد تحررت من ضغوطات الاندماج الهندسي القديم في نهاية سعيدة للعالم لجيروم بوش.

وقد أخذ البعض الآخر على عاتقه تقديماً أكثر شمولية، فقد خصص الهولندي يوهان هويزنغا منذ 1919، كتاباً له خريف العصر الوسيط، وقد أكدت إعادة نشره على أهميته الدائمة. وقد بين جاك لوغوف في مقدمته بوصفه إضافة رائدة أنه «بين أنه يجب البحث عن معنى المجتمع من خلال منظومة تمثلاته، ومن خلال المكانة التي تحتلها هذه التمثيلات داخل البنى الاجتماعية وفي «الواقع»⁽³⁵⁾. لقد عكف هويزنغا على المجال الفرنسي البورغوني (Bourguignon) والفلامندي (Flamand)، واستفاد مما توفر من المعلومات كقصص الفرسان والشعر الاحتفالي أو الرعوي وإيقونوغرافيا اللوحات الفنية الخاصة للحرفاء النبلاء أو الرسوم الشعبية على الخشب، ومن وصف كل ما لا يمكن أن نراه، كالاحتفالات التي تصاحب الزيارات الأميرية والأعياد ومواكب الأعراس والدفن. ومن دون أن يكرر الاستكشاف الوثائقي، سلط جورج دوبوي⁽³⁶⁾ ضوءاً ساطعاً على الدوافع النفسية.

Johan Huizinga, *L'Automne du moyen Age, le regard de l'histoire*, (35) traduit du hollandais par J. Bastin, nouvelle éd. précédée d'un entretien avec Jacques Le Goff (Paris: Payot, 1975).

Georges Duby, *Le Temps des cathédrales: L'Art et la société, 980-1420*, (36) bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, 1976).

تكشف كل هذه الأعمال عن المواضيع الكبرى التي تكون المتخيل منذ القرنين الرابع عشر والخامس عشر: تراحم المخلوقات البشعة الأمانة بالسوء والاستبشار الفظيع بمحفل السبت، وهي تقوم كلها في الوقت نفسه بأنسة المسيح المصلوب وأمه التي لم تنفك الرسوم والمسرح والطرق الدينية تعبر عن حزنها، وتكرره الأدعية وتستعيد الحركة الزهدية، وكذلك تمرکز مسألة مطهرة الذنوب والملاك الحارس، واستحواذ فكرة الموت الفردي على الأذهان من خلال التصوير الجنائزي للجثة التي تتحلل أمام سعادة الأحياء، وكذلك الرقص الجنائزي. ولكن يوجد أيضاً فرط شهواني لم يستطع تحريم الكنيسة منعه، وفي النهاية، بحسب تعبير هوبزناغا، «مشهد الأحلام» الذي تستأثر به أرستقراطية العصر عندما تقدم من خلال خطبها وسيرها الروايات الفرساتية والروايات الرعوية.

كل ذلك وقع تجميعه خلال مرحلة تاريخية انتقالية تغيب فيها الفبودالية الهرمة، وتولد فيها مواقف حسية ودينية خاصة بالإنسان الحديث. إن مثل هذا الحلف الذي وقع استكشافه جيداً، وربما بطريقة مثلى، يطرح بصورة واضحة مشكلة العلاقة بين الواقع الاجتماعي ومنظومة التمثيلات التي يجب بناء تاريخ المتخيل من خلالها.

استشراف الحداثة

ترتبط نظرة الآخرة التي تبنتها الحداثة مباشرة بسوابق الضمائر المعاصرة. لقد رأينا من خلال أعمال هوبزناغا ودوبي كيف ينتقل التركيز من الآخرة في حد ذاتها إلى الموت العادي. وقد خصص ألبرتو تينينتي كتاباً يعالج هذه النقطة مبيّناً أن إيقونوغرافيا انتصار الموت في إيطاليا والرقص الجنائزي في مختلف الجهات

توضحها النصوص. كما يتن أيضاً كيف كانت الطباعة في بداياتها تنشر تجديداً قصيراً، ولكنه قوي، لتمثيلات العصر الوسيط من خلال كتب «كيف تموت بطريقة مرضية»، وذلك بتصوير المحتضر، وهو ممتد بين القوى السماوية والمخلوقات البشعة، وهو موضوع استحوذ على خيال كل الصور⁽³⁷⁾.

أعطت بحوث أخرى للأخرة الحديثة مكانها في التاريخ الاجتماعي في شكل بنوي يمكن مقارنته بالذي كان وراء بحوث شبيهة تعلقت بالعصر الوسيط المنتهي. وكان برنار غروثويزن⁽³⁸⁾ (B. Groethuysen) من أكبر رواد ذلك منذ خمسين سنة خلت، ببحثه الواعد حول نشأة العقل البورجوازي في فرنسا في القرن الثامن عشر، والذي بقي للأسف غير مكتمل. يقول بأن البورجوازية تحررت من الكنيسة لأن ضرورة الاحتياط البورجوازية للمستقبل ولدت فكرة نظام للكون يقبلها الإنسان النزيه بعقله، وأن الله ليس إلا محركاً مجرداً، والإنجيل كتاب وعظ، والنار «وهم أدبي» لم يعد يخيف الناس.

صحيح أننا اليوم نعرف أكثر مما في ذلك الكتاب الذي لا يخلو من خبث جدالي، حول التغيرات الفكرية والثقافية التي تشكلت في أفق الأبحاث التي سنوردها في ما بعد، كأعمال فوكو وماندرو أو سارتو. إلا أن صورة البورجوازي الذي أصبح غير مؤمن، لم تفقد الدقة التي تعطيها قراءة متسعة ومتطلعة لنصوص العصر، كالمواعظ

Alberto Tenenti, *La Vie et la mort à travers l'art du XVe siècle*, cahiers (37) des annales; 8 (Paris: Armand Colin, 1952).

Bernard Groethuysen, *Origines de l'esprit bourgeois en France. I.* (38) *L'Eglise et la bourgeoisie*, bibliothèque des idées; 1 (Paris: Gallimard, 1927), rééd. 1977.